قسم العلوم الإنسانية جامعة محمد العربي بن مهيدي أم البواقي

السنة الأولى ماستر تاريخ مقيـــاس : النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي

المحاضرة الرابعة : أسس الحرف والصناعات في الغرب الإسلامي

مقدمة:

إن المقياس الحقيقي لمدى تطور ونضج أي نظام اقتصادي في العصر الوسيط لا يتوقف عند حدود وفرة المواد الخام المستخرجة من الطبيعة، بل يتجلى في القدرة البشرية على تحويل هذه الموارد، وإضافة "قيمة اقتصادية" لها عبر الحرف والصناعات. لقد شهد الغرب الإسلامي (بجناحيه الأندلسي والمغاربي) طفرة ديموغرافية وحضرية غير مسبوقة، رافقتها "ثورة زراعية وتعدينية" وفرت سيولة هائلة من المواد الأولية. وأمام هذا المعطى، لم يكتفِ الإنسان في هذا المجال الجغرافي بدور المزارع أو الراعي، بل برز كصانع وحرفي ماهر، مؤسساً لقطاع صناعي (ثانوي) شديد التنوع والتنظيم.

الإشكالية المحورية :بناءً على ما تقدم، تتمحور إشكالية هذه المحاضرة حول التساؤل الآتي :*كيف استثمرت مجتمعات الغرب الإسلامي مقدراتها ومواردها الطبيعية (الزراعية، والحيوانية، والمعدنية) لتأسيس قاعدة حرفية وصناعية متينة؟ وما هو الدور الذي لعبته هذه الصناعات التحويلية في تحقيق الاكتفاء الذاتي للمدن، وتغذية حركية التجارة الخارجية، وتعزيز قوة الدولة سياسياً وعسكرياً؟*

خطة المحاضرة :للإجابة على هذه الإشكالية، سنقسم محاضرتنا إلى ثلاثة محاور رئيسية، نتتبع في كل منها مسار تحول المادة الخام إلى منتج نهائي، بدءاً بالصناعات

ذات الأساس النباتي، مروراً بالصناعات ذات الأساس الحيواني، وصولاً إلى الصناعات الثقيلة والدقيقة ذات الأساس المعدني.

المحور الأول: الصناعات القائمة على الأساس الزراعي (النباتي)

شهد الغرب الإسلامي (الأندلس والمغرب) طفرة في الصناعات التحويلية التي اعتمدت بالأساس على الغطاء النباتي والمحاصيل الزراعية، وقد خضعت هذه الصناعات لتنظيم حرفي دقيق وتطورت تقنياتها لتلبي حاجات السوق المحلي والتصدير. ويمكن تقسيم أبرز هذه الصناعات إلى:

.1الصناعات الغذائية التحويلية (عصر الزيوت وتكرير السكر):

- **استخراج الزيوت :**لم تقتصر زراعة الزيتون على الاستهلاك الغذائي المباشر، بل شكلت المادة الخام الأهم لـ "صناعة الزيوت" التي استُخدمت في التغذية، والإنارة، وصناعة الصابون. وقد تركزت معاصر الزيتون بكثافة في الأندلس وإفريقية. ويُعد إقليم "الشرف" بغربي إشبيلية من أشهر مراكز إنتاج الزيت؛ حيث يصف المقري كثافة غاباته وأهميتها الاقتصادية قائلاً إن إقليم الشرف عبارة عن "تلّ عالٍ من تراب أحمر مسافته أربعون ميلاً في مثلها، يمشي بها السائر في ظل الزيتون والتين".[1]
- **صناعة السكر :**يُحسب للمسلمين إدخال زراعة قصب السكر إلى حوض البحر الأبيض المتوسط، والأهم من ذلك تطويرهم لـ "صناعة تكرير السكر". لم يكن يُباع كقصب فقط، بل أُسست له معاصر ومطابخ ضخمة لغليه وتنقيته، ثم صبه في قوالب مخروطية (أقماع) ليتبلور. تركزت هذه الصناعة الثقيلة في سواحل الأندلس الجنوبية (مثل مُطريل) وفي منطقة سوس بالمغرب الأقصى، وشكل السكر المغربي والأندلسي سلعة استراتيجية تهافتت عليها الأسواق الأوروبية.[2]

.2صناعة الورق (الكاغد):

تُعد صناعة الورق من أعظم الإسهامات الصناعية للغرب الإسلامي في التطور الإنساني؛ إذ انتقلت هذه الصناعة من الصين إلى المشرق الإسلامي، ومنه إلى الأندلس والمغرب. اعتمدت هذه الصناعة نباتياً على إعادة تدوير "خِرَق" الكتان والقطن القديمة، وغسلها، ودقها بالرحى المائية لتتحول إلى عجينة تُفرد في قوالب لتجف.

وقد تربعت مدينة **شاطبة (Játiva)** في شرق الأندلس على عرش هذه الصناعة، لتصبح أول وأهم مركز لصناعة الورق الفاخر في أوروبا. وقد أشاد الجغرافي الإدريسي بجودة ورق شاطبة وريادتها المطلقة قائلاً: "ومدينة شاطبة مدينة حسنة... ويُعمل بها من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمغمور الأرض، ويعم المشارق والمغارب".[3]

.3الصناعات النسيجية (الأساس النباتي):

إلى جانب الحرير والصوف (الأساس الحيواني)، اعتمدت الصناعة النسيجية الشعبية والعسكرية على زراعة القطن والكتان.

- **الكتان والقطن :**وفّر الكتان المادة الأساسية لنسج الملابس اليومية لعامة الشعب لانخفاض تكلفته مقارنة بالحرير. كما شكلت أليافه عصب "الصناعة الحربية البحرية"، حيث استُخدم بكثافة في صناعة الأشرعة (القلوع) للسفن المغاربية والأندلسية. وقد اشتهرت حواضر مثل ألمرية وبجاية بوجود آلاف الأنوال المخصصة لغزل ونسج هذه المواد النباتية.[4]

قائمة الهوامش :

1. أحمد بن محمد المقري، *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، تحقيق إحسان عباس، ج 1 (بيروت: دار صادر، 1968)، 158.
2. إيليا أشتور، *التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى*، ترجمة عبد الهادي عبلة (دمشق: دار قتيبة، 1985)، 215-217.
3. محمد بن محمد الإدريسي، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، ج 2 (بيروت: عالم الكتب، 1989)، 557.

4. حسين مؤنس، *معالم تاريخ المغرب والأندلس*)القاهرة: دار الرشاد، 1992)، 248.

المحور الثاني: الصناعات القائمة على الأساس الحيواني

شكلت الثروة الرعوية والحيوانية في الغرب الإسلامي رافداً أساسياً لقطاع الصناعات التحويلية. وقد استغلت الحواضر الأندلسية والمغاربية هذه الموارد لتأسيس صناعات ثقيلة ودقيقة استجابت للاستهلاك المحلي الفاخر وشكلت عصب الصادرات نحو الممالك الأوروبية والمشرق.

.1صناعة الجلود (الدباغة) وتطبيقاتها:

استندت هذه الصناعة إلى الوفرة الكبيرة في قطعان الماشية والأغنام في بوادي المغرب والأندلس. لم تكن الدباغة مجرد حرفة يدوية بسيطة، بل صناعة كيميائية معقدة تتطلب مواد دابغة نباتية (مثل قشور الرمان، والعفص، ولحاء البلوط) لتنظيف وتنعيم الجلود وتلوينها.

- **ريادة قرطبة وفاس :**تسيّدت مدينة قرطبة هذه الصناعة عالمياً، حتى أن الجلود الأندلسية الفاخرة والمزخرفة عُرفت في اللغات الأوروبية بـ (Cordovan) أو (Cordouan)نسبة إليها.[1] وفي المغرب الأقصى، برزت مدينة فاس كأكبر مجمع صناعي للدباغة عبر منشآتها الضخمة (دور الدباغ)، والتي كانت تنتج جلوداً تُستخدم في صناعة السروج العسكرية، الأحذية، الدروع الجلدية، وتجليد المخطوطات الفاخرة.[2]

.2الصناعات النسيجية (الأساس الحيواني: الحرير والصوف):

انقسمت المنسوجات ذات الأساس الحيواني إلى شقين، أحدهما موجه للنخبة والآخر للاستهلاك الشعبي الشتوي:

- **صناعة الحرير (تربية دودة القز) :**بفضل إدخال زراعة أشجار التوت الأبيض، ازدهرت صناعة الحرير الطبيعي. وتُعد مدينة **ألمرية** في الأندلس العاصمة

الاقتصادية لهذه الصناعة بامتياز. يصف الجغرافي الإدريسي حجم هذه الصناعة ومكانتها قائلاً: "وبها [أي ألمرية] من طراز الحرير ثمانمائة طراز، يُعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والأصفهاني... وما لا يُقادر قدره ولا يُوصف حسنه".[3] وهذا يعكس حجم الإنتاج الضخم الذي كان يُصدر عبر مينائها.

- **صناعة الصوف** :تركزت هذه الصناعة في مدن المغربين الأوسط والأقصى لاعتمادهما الكبير على الرعي. استُخدم الصوف في نسج "البرانس"، والأغطية، والزرابي (السجاد) التي امتازت بجودة صبغتها (خاصة باستخدام صبغة الفوة الحمراء)، وكانت من أهم الهدايا الدبلوماسية المتبادلة.

.3الصناعات الدقيقة (النقش على العاج والعظام):

عكس هذا القطاع قمة الترف والرقي الفني. اعتمد الحرفيون الأندلسيون والمغاربة على العاج الذي كان يُستورد بكميات كبيرة عبر طرق قوافل التجارة الصحراوية من أعماق إفريقيا نحو سجلماسة ثم الأندلس.

- **الأحقاق والتحف** :تخصصت ورش مدينة الزهراء وقرطبة في نحت "الأحقاق" (علب أسطوانية لحفظ الطيب والمجوهرات)، ومقابض السيوف، وقطع الشطرنج. وكانت هذه القطع العاجية تُطعم بالفضة والأحجار الكريمة، وتُقدم كـ "خِلَع" وهدايا ملكية تعكس النفوذ الاقتصادي والسياسي للدولة.[4]

قائمة الهوامش :

1. إيليا أشتور، *التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى*، ترجمة عبد الهادي عبلة (دمشق: دار قتيبة، 1985)، 220.
2. الحسن بن محمد الوزان (ليون الإفريقي)، *وصف إفريقيا*، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الجزء 1 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983)، 245-247.

3. محمد بن محمد الإدريسي، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، المجلد 2 (بيروت: عالم الكتب، 1989)، 561-562.

4. أحمد بن محمد المقري، *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، تحقيق إحسان عباس، المجلد 1 (بيروت: دار صادر، 1968)، 203-204.

المحور الثالث: الصناعات القائمة على الأساس المعدني

استندت الصناعات المعدنية في الغرب الإسلامي إلى نشاط تعديني مكثف لاستخراج خامات الحديد، النحاس، الرصاص، والفضة من جبال الأندلس والمغرب. ولم يقتصر دور هذه الصناعات على تلبية الاحتياجات اليومية، بل ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بـ "السيادة السياسية" و"القوة العسكرية" للدولة.

.1الصناعات الحربية والعسكرية (الحديد والصلب):

شكل الحديد العمود الفقري للصناعات الحربية التي ضمنت تفوق جيوش الأندلس والمغرب. تركزت هذه الصناعات في حواضر قريبة من مناجم الاستخراج أو موانئ الاستيراد.

- **صناعة الأسلحة الفردية :**اشتهرت مدن مثل **طليطلة** و**إشبيلية** بصناعة السيوف الفولاذية القاطعة، والدروع، والرماح. وقد بلغ الحدادون الأندلسيون شأواً عظيماً في تقنية "التكفيت" (تطعيم الحديد بالذهب والفضة) لزخرفة مقابض السيوف المخصصة للخلفاء وكبار القادة، مما جعل السيف الأندلسي مضرباً للمثل في المتانة والجمال.[1]
- **الصناعة البحرية (الترسانات) :**تطلب بناء الأساطيل في دُور الصناعة (مثل ترسانات بجاية، تونس، وسبتة) كميات هائلة من الحديد لصناعة المسامير الضخمة، والمخاطيف (المراسي)، والسلاسل الغليظة التي كانت تُستخدم لإغلاق مداخل الموانئ العسكرية وقت الحصار.[2]

.2الصناعات النحاسية والبرونزية (بين الاستخدام المدني والديني):

تفوقت الحواضر المغاربية والأندلسية في تطويع النحاس والبرونز لإنتاج أدوات جمعت بين المنفعة اليومية والروعة الفنية.

- **الاستخدام المدني والعلمي :**برزت صناعة الأواني المنزلية الفاخرة، والمقلميات، وصناعة الآلات العلمية الدقيقة كـ "الإسطرلابات" النحاسية التي تطلبت مهارة هندسية ورياضية فائقة، وكانت تُصدر إلى الممالك الأوروبية.[3]
- **الاستخدام الديني (الثريات والأبواب :(**تجلى الإبداع في صناعة الثريات النحاسية الضخمة التي أضاءت كبريات المساجد (مثل جامع قرطبة، وجامع القرويين بفاس). يذكر المقري في وصفه لجامع قرطبة أن ثرياته كانت تُصنع من النحاس الخالص، وتُزين بآلاف الكؤوس الزجاجية، مما يعكس قوة الاقتصاد وقدرة الدولة على تمويل مشاريع عامة بالغة التكلفة.[4]

.3صياغة الحلي و"دار السكة" (الذهب والفضة):

اعتمدت هذه الصناعة على الذهب الوارد من بلاد السودان الغربي عبر سجلماسة، والفضة المستخرجة محلياً.

- **دار السكة (رمز السيادة) :**لم تكن "دار السكة" مجرد ورشة اقتصادية، بل كانت مؤسسة سيادية بامتياز؛ فسك الدنانير الذهبية والدراهم الفضية باسم الحاكم كان الإعلان الأبرز عن استقلالية الدولة وشرعيتها السياسية. وقد أفرد ابن خلدون فصلاً في مقدمته لبيان خطورة هذه الوظيفة، معتبراً إياها من أهم "الوظائف السلطانية" التي تتطلب رقابة صارمة على معايير الوزن ونقاء المعدن لضمان استقرار الأسواق.[5]
- **الصياغة والمجوهرات :**تخصص الصاغة (وغالبيتهم في الأندلس) في صياغة الحلي النسائية المطعمة بالأحجار الكريمة، وتيجان الخلفاء، مما يعكس حالة الترف الحضاري التي ميزت النخب الحاكمة.

قائمة الهوامش:

1. حسين مؤنس، *معالم تاريخ المغرب والأندلس*)القاهرة: دار الرشاد، 1992)، 258-259.
2. محمد بن محمد الإدريسي، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، المجلد 2 (بيروت: عالم الكتب، 1989)، 570-571.
3. خوان فيرنيت، *فضل الأندلس على ثقافة الغرب*، ترجمة نهاد رضا (دمشق: طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1997)، 185.
4. أحمد بن محمد المقري، *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، تحقيق إحسان عباس، المجلد 1 (بيروت: دار صادر، 1968)، 548.
5. عبد الرحمن بن خلدون، *المقدمة*، تحقيق عبد السلام الشدادي، الجزء 2 (الدار البيضاء: بيت الفنون والعلوم والآداب، 2005)، 45-47.

ثانياً: الخاتمة التركيبية للمحاضرة

في ختام هذه المحاضرة، نخلص إلى بناء تصور شامل حول طبيعة النشاط الصناعي في الغرب الإسلامي، والذي يمكن تركيبه في النقاط الجوهرية الآتية:

- **أولاً (التكامل الاقتصادي) :**أثبتت التجربة التاريخية للغرب الإسلامي وجود حالة من "التكامل العضوي" بين القطاعات الاقتصادية. فالصناعة لم تكن لتزدهر لولا الفائض الذي حققته الزراعة (كالقطن والكتان وقصب السكر)، ووفرة المراعي (للصوف والجلود)، ونشاط التعدين (للحديد والنحاس والذهب). هذا التكامل جعل من المدن الكبرى (كقرطبة، ألمرية، فاس، وبجاية) مجمعات صناعية حقيقية قادرة على تحويل المادة الخام المحلية أو المستوردة إلى سلع استهلاكية فاخرة.
- **ثانياً (البعد السياسي والسيادي للصناعة) :**لم يكن النشاط الحرفي معزولاً عن عين السلطة وقرارها السياسي. فقد تدخلت الدولة بشكل مباشر في توجيه واحتكار بعض الصناعات الحساسة التي تمس "سيادتها" أو أمنها القومي؛ ويتجلى ذلك بوضوح في تأسيس "دُور الطراز" للنسيج الفاخر، و"دُور الصناعة"

لبناء الأساطيل البحرية، و"دار السكة" لضرب النقود. كما فرضت رقابة صارمة على الأسواق وجودة المنتجات من خلال مؤسسة "الحسبة"، مما حفظ سمعة المنتج المغاربي والأندلسي.

- **ثالثاً (الإشعاع الحضاري والتجاري) :**تجاوزت مخرجات هذه الحرف والصناعات تلبية الاحتياجات المحلية، لتتحول إلى المحرك الأساسي لحركة التجارة الخارجية (وهو ما سندرسه في المحاضرات اللاحقة). لقد غزت المنسوجات الأندلسية، والجلود القرطبية، والورق الشاطبي، والسكر المغاربي أسواق أوروبا والمشرق، مما أحدث تراكماً في الثروات، وانعكس إيجاباً على تطور العمران، وظهور طبقة برجوازية من كبار التجار والحرفيين أثرت في البنية الاجتماعية للغرب الإسلامي.

خلاصة القول :إن أسس الحرف والصناعات في الغرب الإسلامي تمثل قصة نجاح باهرة في حسن إدارة الموارد وتطويع الطبيعة، وتؤكد أن التفوق السياسي والحضاري الذي عرفته هذه الرقعة الجغرافية كان مسنوداً بقاعدة اقتصادية إنتاجية صلبة ومرنة في آن واحد.